بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

. . الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، أحمده وأستعينه ، وأتوكل عليه وأستهديه، إنه من يهد الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادى له، وأصلى وأسلم على خير خلقه ، وخاتم أنبيائه ورسله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وتابعيه بإحسان إلى يوم الدين.

«أما بعد..»

. . فتلك طائفة من البحوث كنت قد كتبتها فى سنوات متباعدة، ونشرتُ أكثرها فى أماكن مختلفة، غير أن الأسئلة التى تطرحها وتحاول الإجابة عنها تدور جميعها (**وهذا مبرر نشرها الآن مجتمعة**) حول قضايا الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم : ذلك الكتاب الخالد الذى لا تنقضى عجائبه، ولا يخلق على كثرة الردّ، والذى عجز أعداؤه من ذوى الفصاحة واللسن عند تحديهم به (**وقد كانوا كما وصفهم قومًا لدًّا**) عن الإتيان لا بمثله ، بل بسورة واحدة من مثله!!

لقد توقف أول هذه البحوث (**وحدة السياق فى سورة القيامة**) إزاء الآيات الأربع التى توجَّه النهى فيها ـ فى تلك السورة ـ إلى النبى ﷺ كيلا يتعجل نزول القرآن ﴿ **لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾** ﴾ [القيامة : ١٦ ـ ١٩]، وتساءل عن وجه المناسبة أو الارتباط المعنوى بينها وبين ما سبقها أو لحق بها فى سياق تلك السورة، ذلك التساؤل الذى أشار غير واحد من المفسرين إلى إشكالية الإجابة عنه، الأمر الذى دعا بعض الروافض إلى اتخاذ تلك الآيات دليلاً على ما زعموه من أن القرآن قد غُيِّر فيه وبُدِّل ، وزيد فيه ونقص عنه!!

وقد قام البحث بقراءة متأنية لتلك السورة كشف خلالها ـ دون تعمّل أو اعتساف ـ ليس فقط عن وجه مناسبة هذه الآيات للسياق، بل عن مدى ارتباطها العضوى به، الأمر الذى تتأكد معه حقيقة القول بأن هذه السورة (**شأنها شأن غيرها من سور هذا التنزيل المحكم**) وتتعاضد عناصرها ـ كل منها فى موقعه ـ فى تحقيق غرض واحد ، وتأدية غاية واحدة.

وإذا كان أول تلك البحوث قد دار حول ظاهرة «**التناسب المعنوى**» فإن ثانيها (**تناسب الفواصل القرآنية..**) قد دار حول ظاهرة «**التناسب الإيقاعى**» من زاوية التأكيد على أنها لا تتمثل بأى صورة من صورها فى القرآن الكريم إلا إذا كان لها دورها التعبيرى فى تشكيل المعنى وإنتاج الدلالة، ومن هذه الزاوية توقف هذا البحث للتعليق على كتاب ابن الصائغ الحنفى «**إحكام الراى فى أحكام الآى**» الذى ركز خلاله تركيزًا لافتًا على الجانب الإيقاعى أو الشكلى فحسب عند نظرته إلى تناسب الفواصل فى القرآن الكريم، وتحليله للأحكام (**ويعنى بها صور العدول أو مخالفة الأصل**) التى ترد فى خواتيم الآيات محققة هذا التناسب!!

أما ثالث تلك البحوث (**فكرة الفصل بين علوم البلاغة..**) فقد كشف عن تَجذّر تلك الفكرة فى غمار الجدل الذى احتدم فى تراثنا العربى حول «**قضية الإعجاز القرآنى**»إذ إن هذا الجدل قد تمخض عن زيوع القول بأن النظم (أو التأليف) هو مناط التحدى ومدار الإعجاز فى لغة القرآن الكريم، ومن ثم حرص بعض المشتغلين بتلك القضية من المتكلمين على التفرقة بين «**النظم والبديع**» أو بين «**النظم واللفظ**»، وكانت تلك التفرقة ـ بصورتيها ـ هى أساس الفصل بين ميادين علوم البلاغة الثلاثة (**المعانى ـ البيان ـ البديع**) ذلك الفصل الذى بدأت تبلور ملامحه (**وتلك أبرز نتائج هذا البحث**) لدى أبى بكر الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣هـ ثم تجلّت بصورة واضحة لدى عبدالقاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١هـ الأمر الذى يغدو إزاءه القول (**الذى تردد كثيرا**) بأن هذا الفصل أو التقسيم إنما شرعه وتولى كبره السكاكى وأتباع مدرسته فى حاجة ماسّة إلى إعادة نظر.

وقد توقف رابع هذه البحوث (**البيان القرآنى وتهمة الشعر**) إزاء تلك التهمة التى طعن بها مشركو مكة فى القرآن متسائلاً عن وجه التشابه من منظورها ـ فى زعمهم ـ بين القرآن والشعر؟ ـ وقد انتهى ـ بالأدلة المقنعة ـ إلى نفى ما ذكره المفسرون من آراء فى محاولة الإجابة عن هذا التساؤل، ثم قام باستقراء الآيات القرآنية التى حكت ترديد المشركين لتلك التهمة، وعن طريق تأملها تأملاً متأنيًا توصل إلى نتيجة مؤداها: أن هؤلاء المشركين لم يسوقوا تلك التهمة طعنًا فى النص القرآنى ذاته، بل طعنًا فى مصدره الغيبى (**حقيقة الوحى**)، وأنهم قد ارتكزوا فى طعنهم هذا على أسطورة (**شياطين الشعر**) التى كانت ذائعة بينهم عن مصدر الشعر آنذاك، ومؤدى ذلك أن التشابه الذى حاولوا ترويجه بتلك التهمة بين القرآن والشعر يتمثل فى كون كل منهما وحى شيطان.

وقد استأنس البحث فى فهمه لتلك التهمة (**على هذا النحو**) بطبيعة المسلك الذى سلكه البيان القرآنى فى دحضها؛ إذ بتأمل المواضع القرآنية التى سيقت للرد عليها (**وهو ما نهض به البحث**) يتبين لنا حفولها بالإشارات الداعمة لهذا الفهم: كتأكيد الحيلولة بين الشياطين وبين السمع، ونفى تنزّلهم بالقرآن، وإثبات حقيقة الوحى، وتأكيد نزول الروح الأمين به.. إلى آخر تلك الإشارات أو المؤشرات التى تعزز ـ فيما نحسب ـ تلك النتيجة التى توصل إليها هذا البحث.

أما خاتمة تلك البحوث فقد طرح تساؤلاً عن خصوصية الصورة الكنائية فى القرآن الكريم، وهو تساؤل أحس بضرورة طرحه (**وأسأل الله التيسير**) بصدد غيرها من الصور والألوان البلاغية التى لم يشرعها أو يتفرد بها القرآن، وإنما كان وجه تفرده أو مناط إعجازه فيها هو أنه مع سيره فى دروبها المسلوكة ، وجريه فى مضاميرها التى تسابق فيها ذوو الفصاحة واللسن قبل نزوله ـ فإنه قد حقق فيها الغاية التى لا تُدرك وبلغ بها الذروة الفنية التى تقاصرت دونها ـ وستظل ـ همم سالكيها من بنى البشر !!

وفى ضوء المهاد النظرى الذى اقتضته طبيعة التساؤل المطروح (**حول مفهوم الكناية وطبيعة مسارها الدلالى ومعايير فنيتها فى التراث البلاغى**) ـ توصل البحث إلى أن من أبرز خصوصيات تلك الصورة فى ذلك البيان المعجز:

أ ـ **خلود علاقتها بمعناها المراد** : وذلك لانبثاق تلك العلاقة من مواضعات العرف العام الذى يتعارف عليه أبناء الجنس البشرى فى عمومه ، والذى لا يستأثر به مجتمع دون مجتمع، ولا يختص به عصر دون عصر.

ب ـ **مثالية الوضوح** : فكل كنايات القرآن الكريم تتجلى فيها هذه الدرجة المثلى من الوضوح، أى تلك التى تجعل المتلقى يحس إزاءها بأن الصورة ذاتها (لا معناها الأول أو الحرفى) هى التى تنقله نقلاً مباشرًا إلى معناها.

ج ـ **التناسب السياقى** :أى دقة ملاءمة الصورة بكل ما تحفل به بنيتها الخاصة من شحنات دلالية، أو طاقات تصويرية ليس فقط ـ كما شرط البلاغيون ـ للمعنى الذى تساق لتصويره ، بل كذلك لطبيعة الموقع الذى تشغله، وخصوصية السياق الذى ترد فيه!!

«وبعد»

فلست أدعى أنى قد قلت الكلمة الأخيرة أو القول الفصل فيما عالجتُ من قضايا؛ فالكمال لله عز وجل وحده، وحسبى أنى لم أدخر وسعًا ، ولم أقصر فى بذل جهد خلال معايشتى لنصوص ذلك البيان المعجز الذى لم يضنّ على مخلصٍ بعطاء، ولن ينفد له ـ فى الوقت ذاته ـ أبد الدهر عطاء!!

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء : ٨٨]

وعلى الله قصد السبيل

حسن طبل

حول الإعجاز البلاغي للقرآن
وحدة السياق فى سورة القيامة
فكرة الفصل بين علوم البلاغة ونشأتها وتطورها فى نطاق قضية الإعجاز القرآنى
تناسب الفواصل القرآنية إيقاع وتعبير تعليق على أحكام هذا التناسب لدى ابن الصائغ الحنفى
البيان القرآنى وتهمة الشعر
صورة الكناية فى القرآن الكريم